تعريف بالكتاب

الضريبة المفردة

تغير مدلول « الضريبة المفردة » فى علم الاقتصاد ، ولكنها لاتزال علما « مفردا » على مذهب هنرى چورچ فى المشكلة الانسانية الكبرى ، وهى مشكلة الفقر والغنى ، أو مشكلة العدالة الاجتماعية فى الحاضر والمستقبل ، فمن قال بالضريبة المفردة بغير تحديد لمدلولها المقصود فهو من مدرسة هنرى چورچ الاقتصادية ، وهى مدرسة لايزال لها تلاميذ وأنصار ، وان تغير نصاب الضريبة المفردة ولما يزل هنرى چورچ بقيد الحياة قبيل نهاية القرن التاسع عشر .

وقد تكرر الاقتراح بفرض الضريبة المفردة بمعيار المصروفات ، أو بمعيار الكسب الخالص ، أو بمعيار الدخل العام ، أو بمعيار رأس المال . ولكن الدراسات المفصلة التى حققها صاحب المذهب ، والمعلومات الضافية التى جمعها من تلك الدراسات لاتزال الى اليوم مادة علمية صالحة لاعادة النظر فيها والمقابلة بينها وبين دراسات العصر الحديث ، مع اختلاف مراجع الاحصاء ، ووسائل البحث والمراجعة .

ومضى على وفاة صاحب المذهب مدة من الزمن تبلغ ثلثى القرن ، وهى مدة كافية لامتحان النبوءات التى نبأها على أساس مقدماته ودراساته . فان لم تكن تجارب الزمن كافية حتى اليوم لنقض الدراسات ، أو لابطال معلوماتها ، فهى كافية لتقرير نتيجة واحدة لاشك فيها ، وهى أن الدراسات ـ صحت أم لم تصح ـ ليست صالحة لاستخراج تلك النبوءات منها ، وليست هى بالمقدمات التى تتبعها تلك النتائج المنتظرة بغير خلاف .

وقد اتفق فى عصر واحد أن المشكلة الانسانية الكبرى - مشكلة العدالة الاجتماعية - عرضت للبحث والحل فى العالمين القديم والحديث ، وفرغ الباحثون على الشاطئين المتقابلين من بحوثهم الطويلة فى مرحلة واحدة من مراحل التاريخ الانسانى على التقريب . فمضى على وفاة كارل ماركس صاحب الفلسفة المادية لتفسير التاريخ نحو ثلاثة أرباع القرن ، ومضى نحو ثلثى القرن على وفاة هنرى چورچ مؤلف كتاب التقدم والفقر وصاحب الرأى المشهور الذى تلخصه الضريبة المفردة على الثروة الأرضية ، فلم يثبت من تجربة الزمن شىء كما ثبت الخطأ فى كل نبوءة تقام على أساس التعريفات المحصورة باسم العلم ، أو باسم المنطق ، أو باسم الاحصاءات الحسابية ، وهى بطبيعتها غير قابلة للحصر الجامع المانع - كما يقول المناطقة - وأشد ما تكون استعصاء على الحصر حين تتصل بدوافع الحياة فى نفوس الجماعات على اختلاف الأحوال والأزمنة ، وحين تتصل بالمعانى الخفية التى لاتخضع للرصد والتسجيل فى تقلباتها ودخائلها ، وليس من الميسور أن يحيط الباحث بعوامل تلك التقلبات فى جيرته القريبة اليه، فلا جرم يعجز عن الاحاطة بها فيما هو بعيد عنه من مجاهل الأزمنة ومجاهل البقاع والسكان .

يقرر هنرى چورچ أن الثروة الأصلية ترتبط بالأرض ، وأن قيمة الأرض كلها من عدد السكان ، ويبنى على ذلك نبوءته عن زيادة الفقر بزيادة الثروة التى يزيدها عدد السكان وتؤول كلها الى صاحب الأرض بغير عمل ، وبغير فضل له فى ارتفاع قيمة أرضه ، وانما الفضل كله لتكاثر العاملين وتداول العروض والأرباح .

ويقرر كارل ماركس أن العمل هو مصدر الثروة ، وأن قانون العرض والطلب هو المرجع فى تقدير الأجور وفى تقدير الأثمان على السواء .

فاذا جاز أن يقال ان هذه التعريفات تحصر معانى كلماتها للمعجمات اللغوية فمن الذى يحصر بواعث الطلب فى نفوس الناس ؟

ومن الذى يحصر عوامل التاريخ التى قررت ملكية الأرض وقررت تكاثر السكان ؟ .

ان غياب هذه العوامل عن حساب الباحثين هو الذى أبطل نبوءة كارل ماركس بانحصار الثروة وازدياد الفاقة بين أصحاب الأيدى العاملة كلما تقدمت الصناعة الكبرى وتكاثرت رؤوس الأموال فى أيدى المالكين للمصانع والآلات .

وغياب هذه العوامل هو الذى أبطل نبوءة هنرى چورچ باجتماع الثروة فى أيدى ملاك الأرض ونضوب الثروة من أيدى العاملين فى غيرها من المرافق والصناعات .

وسيخطىء كل مذهب يخيل الى أصحابه أن التعريفات تحكم عوامل الحياة وتحصر بواعث النفوس ، وتقرر مجرى الزمن على وتيرة واحدة تثبت فى هذه الدنيا المتدفقة بالطوارىء والمفاجآت ، كما ثبتت حروف التعريفات على الأوراق .

ولا يلزم من خطأ النبوءات التى تبنى على التعريف المحدود أن يعدل الباحثون عن تعريفاتهم وعن تقديراتهم ، وأن تبطل القواعد التى يقوم عليها علم الاقتصاد أو تقوم عليها علوم السياسة والاجتماع ، فان العقل الانسانى بطبيعته لايستغنى عن التعريف والتقدير ، بل عن التحديد والتعيين ، ولكنه ـ لهذا ـ ينبغى أن يذكر أنه محدود ، وأن كثيرا من الحقائق يخفى عليه وراء تلك الحدود ، وأنه يخطىء اذا قدر لحدوده الاستمرار الى غير نهاية ولم يقدر لها انقطاعا تنتهى اليه على مر الزمن ، وكل شىء ينقطع اذا شددناه وراء طاقته من الاحاطة والامتداد .

ولقد وضعت تعريفات الاقتصاد موضعها من التجارب الكثيرة فى عشرات السنين ، فلم يثبت منها غير ما أثبته الواقع من مطالب الاصلاح التى قامت على فضائل الأخلاق ، ولم تكن حجة العدالة الاجتماعية من التعريفات والنبوءات « الحسابية » أقوى من حجتها التى أقنعت الضمير ولم تفرضها ضرورات الاقتصاد فى الواقع مالم يكن لها سند من خلائق

الانسانية ، بمعزل عن كفاح الطبقات وصراع العمل والمال .... وقد بطلت كل نتيجة رتبها الباحثون على الضرورات الاقتصادية ، فلم يصدق منها غير ما صدق بمعيار البر والفضيلة .

وربما ظهر شأن العوامل النفسية فى توجيه العقول الى دراسة المشكلات من مقابلة أخرى بين « نفسية » كارل ماركس ونفسية هنرى چورچ ، وهما يتصديان فى زمن واحد للبحث فى مشكلة واحدة .

فالايمان بالنفس البشرية هو الذى أملى على هنرى چورچ مذهبا يقوم على حرية الفرد ولا يقوم على العداء بين الطبقات ، وهو الذى جعل مسألة الفقر والغنى مسألة انسانية ولم يجعلها مسألة منفعة محدودة فى طائفة واحدة تعادى من عداها من طوائف الناس ، وهو الذى جعل المستقبل مرهونا بالتفاهم والتقارب بين أصحاب المصالح المختلفة ، ولم يجعله مرهونا بعاقبة واحدة لامحيد عنها ، وهى عاقبة العداوة الدموية التى لاتزول بغير الابادة والتنكيل ، ولا رجاء معها للحلول الوسطى بين القتال والاستسلام .

أما الايمان « بالمنفعة المادية » دون غيرها فهو الذى أملى على كارل ماركس مذهبه الذى ينكر كل علاقة بين الانسان والانسان غير علاقة الأجور والأرباح .

والعودة الى « رف الجد » قد تبقى كتاب التقدم والفقر جيلين آخرين بكل ما احتواه من الأرقام والتعريفات ، فلا ينتقل من الرف الى أيدى قراء العصر الا بشفاعة مافيه من فضيلة الخلق والحرية .

عباس محمود العقاد